هو العليم

حقيقة العبودية وكيفية تحقّق الإنسان بها

شرح حديث عنوان الصبري - المحاضرة ٣٠

أ.ه.

آية الله الحاج السيد محمد محسن الحسيني الطهراني

قدس الله سره

@MadrastAlwahy

ميجرَّلا نِاطيَّشلا نَمِ للهاِبُ ذوعأ

ميحرَّلا نِمحرَّلا الله مِسبِ

ىفَطصُملا مِساقلا يبأ ،انِبيبحَوَ اندِّيَس ىلَع الله ىلَّصوَ

دَّمحُم

نيموصعَملا ةِادُهلا نيرَهطلأا نَيبِيْطلأا هِلِآ ىلَعوَ

هِمِدَقم بارُتِلِ انُحاورأ ،نيضرَلأا يف الله ِةَّيقب امَّيِسلا

ءادفلا

مِهِقوقُح يرِكِنْمو مهيفِلاخُموَ مهئادعأ ىلَع ةنعَللاوَ

مهِبِقانَموَ مهِلِئاضَفوَ

نيّدلا مويـ ىلَإ

بلط تدرأ اذإ :ملاسلا هيلع قداصلا مامإلا لوقي عساو ،ةيدوبعلا ةقيقح ًلاوّأ كسفن يف سمتلاف ،ملعلا كبلط نم كفده لعجاو ،كلذ دعب ملعلا بلطا ّمث ،اهوحن راكفلأا ضعب عيمجت درّجم سيلو ،هلامعتسا وه ملعلل

واالمعلومات، توكديس عدد من االمحفوظات في داخلك؛ لتكون بذلك نفسُك وصدرك مثل الكتاب الذي يتضمّن بين دفتيه هذه المسائل واالعلوم.

خفاء حقيقة العبوديّة ومعنى أنّ السالك ال يُذنب!

لقد بيّنا في الجلسات السابقة لماذا قال اإلمام الصادق عليه السالم: «عليك في البداية أن تلتمس حقيقة العبوديّة وتطلبها في نفسك»؛ فماذا تكون حقيقة العبوديّة هذه؟ وهل هي أمر خفيّ حتّى يسعى اإلنسان للبحث عنها؟ نعم، إنّها أمر خفي؛ وإالّ، لو كانت واضحة، وبيّنة لجميع الناس، لما طرأت كلّ هذه المشاكل، ولكان الجميع عبيداً؛ فلو كان العبد يرى نفسه مِلكاً طِلقاً لمواله، ويعلم بذلك حقيقةً، لما تمرّد أبداً؛ إذ ما هي علّة التمرّد؟ هي االستقالل، وإظهار آراء الشخصيّة، وإبراز النفس في مقابل الله تعالى؛ فهذه هي حقيقة التمرّد.. {إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ}؛ أي كلّ ذنب تقترفه اإلنسان. في أحد األيّام، قلت للمرحوم السيّد الحدّاد رضوان الله عليه: «يا سيّدي، لقد ارتكبنا العديد من

الذنوب»؛ وقد كنت أبلغ حينئذ السابعة عشرة من العمر؛ فقال لي: «إنّ السالك لا يُذنب؛ وأمّا هذه التي تتحدّث عنها، فهي أخطاء وزلّات؛ والزلّات من لوازم البشريّة»؛ وهذا يعني أنّه كان يُطلق اسم العصيان والذنب والمعصية على مرتبة التمرّد، وليس على الأخطاء التي تحصل نتيجةً للحماقة، والانزلاق العاديّة، والأعمال الصبيانيّة، وأمثال ذلك. {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ}. وأمّا إذا تمرّد الإنسان على الله تعالى، فإنّ ذلك لا يُغتفر؛ ولا تظنّوا بأنّ إظهار الشرك والاعتقاد بوجود مؤثّر في مقابل الباري عزّ وجلّ هو [فقط] عبادة الأصنام، والثنويّة، والإيمان بيزدان وأهريمن[1]! لا! لأنّ هذه الآلهة العامّة والمطلقة باللسبة للأدوار التي يصرف فيها الإنسان توجّهه عن الله تعالى إلى غيره؛ فهذا هو معنى الشرك؛ يبقى أنّ الأمر قد يختلف في بعض المسائل الجزئيّة، والتي سنتحدّث عنها حين التطرّق لعبارة: وَلِمَ العُتُب والـ

[1] يزدان هو إله النور وخالق الخير، وأهريمن هو إله الظلمة وخالق الشرّ عند الثنويّة (راجع: كشّاف اصطلاحات الفنون، ج ١، ص ٩١٣). المعرّب

باستعماله؛ لكنّي لا أظنّ بأنّنا سنتمكّن من الوصول إليها

اليوم، حيث سنرى وجود اختلاف بين درجات استعمال

العلم بحسب اختلاف الأفراد، وأنّ الناس يختلفون في

المستوى من حيث استخدامهم لهذا العلم، وتطبيقهم له،

وتأثّرهم به، بل وامتزاجهم واعتجانهم به.

وأمّا بالنسبة للعبارة الأولى، فإنّ الإمام الصادق

عليه السلام يقول فيها: «سمعٌ أوّلاً ذحو عبوديّتك المنشودة

والمفقودة، ولا يكن كدّك من دون طائل، ولا تأتِ عندي

عبثاً، ولا تهدر لي وقتي» فهذا ما يقوله الإمام؛ غاية

الأمر أنّ ذلك بلسان حاله.. أفلم تطرق أسماعكم لحدّ الآن

عبارة "لسان الحال"؟ فهذا هو لسان حاله: اذهب أوّلاً،

وانظر هل أنت عبد أم مولى؟ هل أنت حرّ أم عبد؟ وبعد

ذلك، تعال عند الإمام موسى بن جعفر عليه السلام؛

والذي سأل بِشر الحافي: أ أنت عبد أم حرّ؟ إذا كنت حرًّا،

فلا كلام لنا معك؛ وأمّا إذا كنت عبدًا، فإنّ هذا ليس هو

فعل العبيد؛ وذلك بأن يرى الإنسان بأنّ غير الله تعالى

دخالة في المسائل التي تقع له؛ أجل، يبقى أنّ هذا التدخّل

الإنسان يظن قد، ولهذا السبب؛ فإنه يخلق مشكلة مختلفة تمامًا بعد أن يحل المشكلة الأولى التي كان يعاني منها، أو إدارة الله تعالى له عن طريق هذه الوسيلة، وهكذا تتشكل المشاكل من جديد.

العلاقة الوثيقة بين الظروف الروحية والعوامل الفسيولوجية

حينما كان العلاّمة رحمة الله تعالى عليه في مستشفى القائم بمشهد من أجل إجراء عمليّة المرارة على ما يبدو لي، كان هناك أحد الأطبّاء الذين اشتدّت بعد ذلك أواصر مودّتهم به؛ وقد كان رجلاً محترمًا وشريفًا، وحافظ على علاقته بالمرحوم العلاّمة، وكان يأتي عنده كلّ يوم؛ وفي الحقيقة، فقد كان العلاّمة رحمة الله تعالى عليه في البداية تحت إشراف هذا الطبيب؛ لكن، بعدما آلت حالته إلى إجراء عمليّة جراحيّة، فقد أصبح علاجه على عاتق سماحة الدكتور توسّلي؛ إذ قبل إجراءات الكشف والفحص والتحاليل، كان هو الذي يقوم بالفحوصات الداخليّة، واسمه سماحة الدكتور منوشهر لاري، ويعمل في مستشفى القائم بمشهد؛ وهو إنسان

منظّم جدًّا، وذو غيرة وحماسة، وكان محبًّا كثيرًا [للمرحوم العلاّمة]. ففي أحد الأيّام، التقيت به، فبدأ يُحدّثني فجأة بمسألة حصلت معه، أو مع أحد الأطبّاء الآخرين؛ والظاهر أنّها وقعت لغيره؛ وأنّه كان يشعر بأنّ الله تعالى قد أبقاه على قيد الحياة لأجل خدمة الناس، حيث وقعت على ما يبدو حادثة لأحد أصدقائه؛ فكان يقول إمّا هو أو صديقه، والترديد منّي أنا: «لقد شملني الله تعالى في هذه الحادثة بلطفه وعنايته، وأبقاني على قيد الحياة، حتّى أخدم الناس».. تذكّرت الآن، وأصحّح كلامي! حيث إنّ هذه المسألة لم تكن متعلّقة به هو؛ فقد تحدّث عن قضيّة مشابهة، وأخطأت أنا في بيان مصداقها؛ وتتعلّق هذه القضيّة بطبيب كان يذهب إليه العلاّمة رحمة الله تعالى عليه في طهران اسمه الدكتور ناصر اتّفاق؛ وقد كنت بدوري أرجع إليه؛ ففي السبع أو الثماني سنوات الأخيرة، كان المرحوم العلاّمة يتردّد عليه؛ وهو نفس ذلك الطبيب المشهور الذي انتقل إلى جوار ربّه على ما يبدو؛ فكان يحكي بنفسه عن مسألة

حصلت له، ويقول: «لقد أحسست بأنّ الله تعالى أبقاني على قيد الحياة لأجل مساعدة الناس وخدمتهم».

كنت في المستشفى في محضر العلاّمة رحمه الله تعالى عليه أثناء مرضه الأخير الذي أصاب مرارته، فقال لي يوماً: «يا فلان! يا سيّد محسن! هل تتذكّر حينما ذهبنا في أحد الأيّام إلى الدكتور اتّفاق، وحكى لنا تلك القصّة، وأنّه كان يعتقد برحيله عن هذا العالم، لكن حصل بداء في الأمر؟ فبرأيك، هل هذا الكلام صحيح أم لا؟» حسناً، فأحياناً، كان العلاّمة رحمه الله تعالى عليه يتحنانا نحن والرفقاء والأصدقاء جميعاً؛ كأن يذكر عبارة مثلاً، ويقول لنا: «فسّروها، واكتشفوا مواضع الخطأ والصحّة فيها، وحدّدوا نقاط قوّتها وضعفها، و...» فلم أُجبه؛ أي أنّني صبرت، لكي يجيب هو؛ فقال: يُمكن تفسير تلك العبارة بطريقتين - وهذا عليكم أن تُدقّقوا كثيراً في هذا الكلام - : الأولى، أن يكون ذلك الطبيب معتقداً بحين التلفّظ بها أنّه "محلّ من الإعراب"؛ إذ له في جميع الأحوال مكانة خاصّة بالنسبة إلى نفسه؛

فهو صاحب تخصّص، وله وقعٌ ووزنٌ خاصّ [في المجتمع]؛ فإذا كان يشعر في نفسه بهذا الأمر، وبأنّ العديد من شؤون البلد سوف تتعطّل إن قبض الله تعالى روحه؛ أي: إذا كان يرى لنفسه وشخصيّته هذه المكانة، فإنّ ذلك خاطئ تمامًا؛ ولو أنّه قد ينسب حياته وبقاءه إلى الله تعالى، ويُضفي على ذلك صبغة إلهيّة، كي يتمكّن من طرح هذه المسألة بنحو مناسب من الناحيتين الوجدانيّة والشّرعيّة، ومن ناحية علاقته مع الناس؛ فبمقتضى الأدلّة، لا يحتاج بيان خطأ هذه المسألة لأيّ شرح أو تفصيل أبدًا؛ وإلاّ، فما معنى: «نحن الآن موجودون، وإذا متنا، ستختلف الأمور، وتتغيّر المسائل، وتتعطّل شؤون العالم»؟! لا، هذا غير صحيح بتاتًا! فالآلاف من الناس رحلوا، وحلّت محلّهم ألوف أخرى من دون أن يحصل أيّ شيء، أو تحدث أيّة مشكلة؛ فهنا، نُلاحظ أنّ الرؤية محفوفة بالكثرة، وأنّها رؤية تنصبّ على الذات والكثرة. وأمّا إذا كان مراده من ذلك الكلام أنّه ـ في جميع الأحوال ـ عبارة عن أحد

الوسائط الإلهيّة؛ ففي نهاية المطاف، حينما يُريد الله تعالى أن يُظهر لطفه وإنعامه في هذا العالم، فإنّه ينزّل هذا اللطف عبر وسائط؛ ومن هنا، فإنّ إرادة الله تعالى ومشيئته تتعلّقان ببقاء على قيد الحياة من باب المرآتيّة والوساطة؛ ففي هذه الحالة، لن يوجد أيّ إشكال، بل هو أمر جيّد، ومستحسن جدًّا، وفي محلّه، ولا يتعارض مع التوحيد والعرفان.. انظروا! إذا تغيّرت المسألة ولو بمقدار قليل، فإنّها تُصبح شركًا، وفي جانبها الآخر، تكون توحيدًا.

وهنا، يأتي قوله عليه السلام: فَاطْلُبْ أَوَّلًا فِي نَفْسِكَ حَقِيقَةَ العُبُودِيَّةِ؛ فعلينا في البداية أن نأتي بهذه العبوديّة الخفيّة، ونُجلّيها لأنفسنا؛ وأن نُحضر هذه العبوديّة التي غفلنا عنها، وهذه الحالة التي سلَونا عنها؛ والتي تجعلنا عبيدًا لله تعالى، وأن نُذكرها، ونتمرّن عليها، حيث يتوجّب على الإنسان أن يُمرّن نفسه عليها باستمرار.

ةقيقحب قّحتلا ىلع سفنلا نيرمتو ةروضرلا ةّيدوبعلا

نأ امهنم دارملا سيلو لاّوأ بُلْطَاف: :ةرابعلا نإف ،اذهلو ايرملأا اذه في ريفتلا في أدبتو ،حابصلا في ظقيتست {لا مْهِسُفْنَأ ىلع اوُفرَسْأ َنيذَّلا َيادِبع ايِ لُق} !الله دابع [1]{ًامعِيمَج َبوُنُّذلا ُرِفْغَي َالله َّنِإ ِالله ِةَمْحَر ْنِم اوُطَنْقَت؛ لا! لأنّ المسألة يا سيّدي لا تنحلّ دفعةً واحدة! بل تحتاج إلى عمل، ومشقةّ، حيث ينبغي تذكير النفس بها كلّ خمسة دقائق؛ لأنّ النفس ترغب كثيرًا في التنصّل من هذا الأمر، وتسعى للذهاب يُمنةً ويسارًا حتّى تتغافل عنه بكلّ هدوء؛ كما أنّ الشيطان ولله الحمد يُساعدها في ذلك كثيرًا، ويضع بين يديها مختلف الطرق والوسائل، ويُعلّمها أسلوب العمل؛ وحينئذ، ماذا يتوجّب على الإنسان فعله؟ ينبغي عليه المجاهدة، بحيث كلّما حاولت النفس الدخول من باب معيّن، أغلقه الإنسان في وجهها، إلى أن يسدّ أمامها جميع الأبواب والنوافذ؛ ففي تلك

---

1. ٥٣ ةيلآا ردصم ،رمزلا ةروس

الحالة فقط تستسلم النفس؛ أي حينما يُغلق في وجهها أبواب: «أنا هو فلان، وأنا بهذا النحو..».

وفي هذا المقام، سوف أطرح عليكم مسألة من دون أيّة مجاملة أو مواربة؛ ولنبدأ بأنفسنا أوّلاً؛ فنحن والله الحمد قد أتينا إلى هذا بأجمعنا؛ أي جميع الرفقاء، والأصدقاء، والأحبّاء، والأفراد الذين يشعرون بالألم، ويحسّون بالمرض، ويعلمون بمعاناتهم من نقص وفراغ، حيث وفّقنا الله تعالى للتعرّف على أحبابه، والأنس بهم؛ هو هذا أقوله بجدّ، ومن دون أيّة مجاملة، **والله على ما أقول وكيل**؛ بأنّني لا أجامل هنا؛ فصحيح أنّ الرفقاء يُبرزون لطفهم ومحبّتهم [بالنسبة لي]، لكن، إذا سُئلوا: «هل إنّ السبب الحقيقيّ لإتيانكم إلى هنا هو السيّد محمّد محسن الطهراني، أم العلاّمة السيّد محمّد الحسين رحمة الله تعالى عليه؟» فإنّ الجميع بلا استثناء سيُجيب: «أتينا لأجله»؛ وإلاّ، فمن أكون أنا؟! فأنا ابنه وأنتسب إليه من الناحية الظاهريّة، غير أنّني لا أعدو كوني طالبًا مثل الآلاف من الطلبة؛ وفي هذه الحالة، ما هي القوّة التي

جذبتكم إلى هذا؟ وما هي الحالة التي ساهمت في اجتماعكم في هذا المكان؟ فليست هي علاقتكم بي أنا؛ فما هي إذن؟ إنّ كتب العلاّمة رحمة الله تعالى عليه، ونفسه هي التي تقف وراء هذه المسألة! هو لتعلمون ما هو الدليل على ذلك؟ الدليل عليه أنّه لو أنّني أردت أن أطرح منهجًا مخالفًا لمنهج المرحوم العلاّمة ـ وقد تكون أطرح منهجًا مخالفًا لمنهج المرحوم العلاّمة ـ ، فماذا تنتظرون؟ لي الأهليّة والقابليّة العلميّة لذلك!، تتركونني، وتذهبون جانبًا، وتقولون: أيّها السيّد! لقد طالعنا كتب العلاّمة رحمة الله تعالى عليه؛ فنحن معك؛ وأمّا إذا كان كلامك مخالفًا لها، فلا نأخذ بكلامك معارضًا لها، [فلا شأن لنا بك]؛ لأنّك لن تكون حينئذ مختلفًا عن بقيّة الخطباء والمتكلّمين؛ وهم كثر في هذا البلد..

فنرى كلّ واحد يأتي ويدّعي مسألة لنفسه؛ وهذا أمر واضح؛ وحينئذ، يأتي الإنسان، وماذا يفعل؟ يقول: «لا يا سيّدي! لو لي أنا، لبقيت كلمات المرحوم العلاّمة

مجهولة؛ ولولاي أنا، لما تسنّى لأيّ أحد شرحها وتفسيرها؛ ولولاي أنا، لبقيت تلك الحار والجبال من العلم مستورة وراء الحسب من دون أن يتمكّن أيّ أحد من الاطّلاع عليها ـ حيث سعى الكثير فعلاً لإبقائها مخفيّة ـ ولولاي أنا، لـ...» لا، يا سيّدي! هذا غير صحيح، ولا ينبغي علينا أن نخدع أنفسنا؛ فلماذا لا نتحدّث بصدق؟ لأنّ الإنسان لن يلحق أيّ ضرر جرّاء الصدق. فمن دون مجاملة، إنّ كتب المرحوم العلاّمة هي التي أتت بكم إلى هنا؛ ولهذا، ما دمت أمشي في نفس هذا الطريق، فإنّكم ستأتون إلى هنا لمجرّد أنّني صاحبتُ ذلك العظيم لعدّة أيّام؛ وتقولون: «حسنًا جدًّا، تعالوا بنا لنرى ما الذي ينقله عن ذلك العظيم، وما هي القصص التي يحكيها عنه، والآراء التي ينقلها عنه» فهذه هي حقيقة المسألة، وإلاّ، فليس من المعلوم أن تنفعكم أفكاري الشخصيّة الفارغة، والكثير من الأشياء التي تملأ ذهني في شيء؛ وحتّى أنا، إذا أردت ألاّ أكون خائنًا، علَيّ أن

آتي بكلامه هو، لا بكلامي أنا؛ وأقول هذا من دون مجاملة!

ومن هنا، علينا أن نُصحّح تفكيرنا؛ فمن هذه اللحظة، تبقى مسألة العلاقة بالله تعالى، والتعلّق بمبدأ الوجود محفوظة في محلّها؛ فلا ينبغي علينا أن نغفل أبدًا عن تلك الأنفاس الطاهرة للروح العلاّمة التي جمعت بيننا هنا؛ ونحن نحضر، ويُحيط آتي وأجلس هنا، وحينما تأتي الميكروفونات، يضعونها أمامي، عليّ أن أنتبه على الفور؛ وهذا هو معنى التمرين. فحينما أذهب للدرس، أحضر أستحضر أن أبدأ الدرس بقيّة الرفاق، عليّ أن أقول: "أَوَّلاً أَنْطَلِقُ فِي سَفَرِ الحَقِيقَةِ العُبُودِيَّةِ" ثمّ أشرع فيه بعد ذلك؛ وعندما أكون جالسًا مع بعض الأفراد، ويطرحون عليّ سؤالاً، فقبل أن أسترسل في الكلام كالعندليب، وأتفوّه بكلّ ما يحلو لي، ماذا عليّ أن أفعل؟ عليّ أن أستحضر هذه المسألة في بالي أوّلاً، لا أن أتقدّم إلى الأمام، وأتقدّم، وأتقدّم، إلى أن أكتشف فجأةً بأنّني بلغت إلى موضع توجد بينه، وبين ما كنت أريد قوله

فاصلة كبيرة؛ فما هو سبب ذلك؟ سببه الغفلة؛ أي أنّك سلكت هذا الطريق عن غفلة؛ وأمّا إذا احترزت عن ذلك منذ البداية... كما أنّ الإمام الصادق يقول أيضًا: أوّلًا؛ فيا أيّها السيّد الذي تريد أن تبدأ الدرس، ماذا يجب عليك أوّلاً؟ ينبغي عليك دائمًا أن تطلب في نفسك حقيقة العبوديّة؛ وحينئذ، سوف ترى بأنّ كلامك قد تغيّر، واختلف عن السابق؛ ويا أيّها السيّد الذي يرغب في الذهاب إلى المتجر والسوق، حينما تُريد أن تقول بسم الله، وتفتح باب دكّانك، ابحث في نفسك عن حقيقة العبوديّة، وسوف تكتشف بأنّ معرفتك بالمشترين وبالناس قد تغيّرت، واختلفت عن الأمس؛ ويا أيّها السيّد الذي يُريد أن يدخل إلى منزله عند أهله وزوجته وأولاده، لا يأتي على بالك أبدًا بأنّك تحكمهم من مقام العلوّ والاستعلاء وأمثال ذلك؛ لا يا عزيزي! فهذا أمر محفوف بالمخاطر؛ ولهذا، حينما تفتح الباب، قبل أن تلج إلى الداخل، وتُسلّم على زوجتك، وتستقبلها بوجه مبستم، عليك أن تستحضر أوّلاً بأنّك عبد؛ فلا تتفوّه بأيّ

كلام كيفما كان، ولا تتعامل مع ابنك كيفما يحلو لك؛ لأنّه عبد لله تعالى، ولو كان عمره ثلاث سنوات؛ ولهذا، ينبغي عليك أن تعمل بمقتضى تكليفك؛ لأنّ مسألة التكليف مختلفة عمّا نحن فيه، حيث يتعيّن على الإنسان أن يلتزم بالقوانين في هذا المجال، بل وحتّى إعمال الشدّة أحيانًا؛ إذ ينبغي الالتزام بهذه المسائل بحسب ما يقتضيه التكليف؛ غاية الأمر أنّ إعمالك للشدّة ينبغي أن يكون خاضعًا للعبوديّة، وليس للأنانيّة؛ كأن تقول مثلاً: «أنا زوجك، وعليك أن تُصغي لكلامي!»؛ فهذا غير صحيح، أو أن تقول: «بما أنّني زوجك، فإنّ طاعتي واجبة عليك؛ وإلاّ، إذا فعلت كذا، سأفعل كذا.. اذهبي خارجًا، وأنت تعال إلى الداخل، وافعل كذا»؛ وحينئذ، ماذا ستفعل هذه المرأة؟ ستشعر في نفسها بالحقارة، وتقول: «هل هذا هو السلوك؟ أنا سوف ...». لكن، إذا عثرت على حقيقة العبوديّة، فإنّك ستدخل إلى البيت بنظرة العبوديّة، وتتعامل مع أهلك بهذه النظرة، وتعثر على أُذن أخرى لتصغي بها إلى كلامهم، وسوف تسمع

المسائل بطريقة مغايرة ومختلفة عن الأمس، وتصبح ليّنًا، وسلِسًا.

الأنانيّة تقع في الطرف المقابل للعبوديّة

{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} ؛ أي أنّ فضل الله تعالى هو الذي شملك، حتّى أصبحت تتعامل بليّن ولطف مع أولئك الكفّار والمشركين الذي كانوا مستعدّين لكي يُضحّوا بأرواحهم، ولا يتخلّوا عن اللات والعزّى؛ وأنا جادّ في كلامي هذا! {وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ}، فمن أين تأتي الفظاظة؟ إنّ السبب في تسمية أبي جهل بهذا الاسم هو كونه قد بلغ من الجهل (المركّب) وخفاء المسائل عنه درجةً، بحيث لم يكن بوسع أيّ كلام أن ينفذ إلى عقله، ولم يكن بالإمكان التحدّث معه بتاتًا؛ فقد وضع بينه، وبين الرسول والحقّ ستارًا يُضاهي سدّ الإسكندر؛ فصدّه ذلك عن نفوذ الكلام إلى سمعه؛ أي أنّه لم يكن يتجاوز أبدًا الغشاء الطبليّ، ولم يصل بتاتًا إلى العصب السمعيّ؛ ففي معركة بدر، قُتل أبو جهل؛ وقد

أرادوا أن يفصلوا رأسه عن جسده؛ ويبدو أنّ ذلك حدث في معركة أحد؛ فانظروا ماذا يفعل هذه الأذانيّة! ففي أحد الأيّام، كان العلاّمة رحمه الله تعالى عليه يتحدّث عن قصّة أبي جهل، فقال: «انظروا أيّها الساده ماذا يفعل هذه الأذانيّة!» بحيث نراه يُرجّح موته على الأذانيّة التي حُبس فيها، ويقول: «إذا أردتم أن تحتزّوا رأسي، فاقطعوه من تحت العنق» حيث كان يتّصف مثلاً بنوع من الأبّهة، ويتوفّر على مظهر خاصّ؛ فلم يكن يقبل بقطع رأسه من فوق، بل طلب منهم قطعه مع الرقبة؛ أي أنّه لا يُفكّر بأنّه سيموت الآن؛ بمعنى أن نفسه تريد ذاتها باقية؛ وإلاّ، فإنّ الإنسان حينما يرتحل عن هذا العالم، فإنّه يرحل؛ وحينئذٍ، ما معنى أن توصي بهكذا أمور بعد موتك؟! فأنت سوف تموت الآن! لا، ألذّه يرى هذه الأذانيّة مستمرّة، ويُريدها أن تبقى كذلك؛ وهنا، حينما نرى بعض الأفراد يرتحلون عن هذا العالم، فإنّنا نشاهد أحياناً بعض الأمور غير اللائقة في مضمون وصاياهم؛ فما هو سبب ذلك؟ سببه أنّه يُريد الحفاظ على تلك الأذانيّة

واستمرارها؛ فجاء ذلك [الصحابي]؛ واحتزّ رأسه من فوق، ومن أصل العنق. لقد كانت هناك عادة سائدة بين العرب تقضي بأنّه إذا وجّه أحدٌ دعوةً للمبارزة في الميدان، بقوله: «هل من مبارز؟» فإنّه لا يُدير وجهه، ولو أتى الخصم من الخلف؛ فقد يأتي خصمه من وراء، ويضربه بالسيف، ويقتله؛ ومع ذلك، فإنّه لا يُدير وجهه للخلف، بل يقول: «إذا كنت رجلاً، فبارزني وجهاً إلى وجه» فانظروا إلى ماذا يُمكن أن تفعله هذه الأنانيّة؛ حيث جاء في تاريخ العرب أنّ المحارب يقول: «إن كنت رجلاً، عليك أن تواجهني من أمام؛ فلن أدير رأسي، ولو ضربتني وقتلتني!» فنراه هنا يُرجّح أنانيّته على القتل؛ فكيف يتسنّى للإنسان أن يصل إلى هذه المستوى؟! وحينئذٍ، هل يُمكن لمثل هذا أن يرضخ للحقّ؟ هل بوسعه ذلك بوجود تلك الأنانيّة؟

وهنا، تبرز هذه المسألة المهمّة، وأنّه على الإنسان أن يضع بعين الاعتبار تلك الأنانيّة في كلّ موضع يكون فيه؛ فإذا كان طبيباً، وأراد أن يُؤدّي وظيفته، فإنّ عليه أوّلاً

أن يُحقّق في نفسه حقيقة العبوديّة، وبعد ذلك، يلجأ للجراحة، والفحص، وكتابة الوصفة الطبّيّة، وأمثال ذلك؛ لأنّ الذي سيكتب الوصفة عندئذ سيكون عبدًا، والذي يُجري تلك العمليّة الجراحيّة سيكون عبدًا؛ وهكذا، في بقيّة القضايا والمسائل؛ وحينئذ، إذا استمرّت هذه المسألة، فإنّها ستصير ملكة للإنسان؛ فتتغيّر أحواله.

إنّ السبب من وراء تأكيد المرحوم العلاّمة مرارًا وتكرارًا على مسألة المراقبة هو عدم وجود من يلتزم بها؛ وحتّى إذا فكّرنا فيها، فإنّنا نُفكّر فيها لمدّة دقيقة واحدة طيلة الأربعة وعشرين ساعة، ثمّ ينتهي الأمر؛ فتخطر على بالنا اللحظة واحدة، وبعد ذلك تنتهي المسألة؛ ومن هنا، فإنّ أوّل شرط لطلب العلم هي ضرورة انكشاف حقيقة العبوديّة؛ فما دامت هذه العبوديّة لم تتحقّق بعدُ في الإنسان، فإنّ هذه العلوم (وهي علوم إلهيّة) سيكون لها تأثير عكسيّ في نفسه.

**بارانکه درلطافت طبعش خلاف نیست ** درباغ

لاله روید ودرشوره زار خس

[يقول: إنّ المطر الذي يتفّق الكلّ حول طاقة طبعه

قد أنبت في الحدائق أزهار الزنبق، وأخرج من الأرض

الخبث الشائك والأشواك]

تحقيق التزكية قبل الدخول في العلم

{وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا}: هذه الآيات الشريفة

والتي تدلّ على أنّ جميع العلماء السابقين واللاحقين وعلماء الأخلاق أوصوا بضرورة التزكية في البداية، وقبل الحركة والشروع في طلب العلم؛ مع أنّ المراد من التزكية هي العبوديّة ذاتها؛ كما قالوا أيضًا: إنّ هذه المسألة [أي العلم] لا يُمكن وجودها أبدًا من دون ذلك المعنى وتحقّقه في النفس؛ وقد سألت العلاّمة رحمة الله تعالى عليه مرارًا وتكرارًا: «يا سيّدي! لماذا فلان بهذا النحو؟ لماذا تُعامله مثلاً بطريقة مختلفة؟»، فكان يقول: «أيّها السيّد! إنّ هؤلاء ليسوا من أهل التسليم؛ فهم يأتون إلى هنا لمجرّد الاطّلاع على بعض الأحوال والأوضاع، ومشاهدة عدد من المسائل؛ لكنّهم يظلّون متقوقعين داخل أفكارهم وأنانيّتهم

الخاصّة». فأحيانًا، قد يأتي أحدهم، ويكون باحثًا عن الحقائق، غير أنّه يفتقر إلى الهمّة اللازمة للعمل بهذه الحقائق؛ فهذه مرتبة؛ لكن، أحيانًا أخرى، قد يكون أحدهم غير متوفّر منذ البداية على حالة التسليم هذه؛ وحينئذ، هل ستكون هناك نتيجة متوخّاة من تردّده على ذلك العظيم؟

- أيها السيد، قدم الدليل المعلا!

- وما الدليل على ذلك؟

- أيها السيد، قدم الكذب المعلا!

- وما الدليل على ذلك؟

- أيها السيد، قدم الكذاب المعلا!

- وما الدليل على يقين مُكلمه؟

- أيها السيد، قدم الدليل المعلا!

- وما الدليل على يقين مُكلمه زوجيًا؟

- أيها السيد، ....

إنّك تعترض على كلّ ما يُقال لك؛ ولهذا، فلن تحصل على أيّة نتيجة؛ فطبقًا لما جرّبناه، وذكره لنا

العظماء، وكتبوه بأنفسهم، فإنّ هذا الأسلوب في التعاطي لن يُثمر أبدًا؛ لماذا؟ لأنّ العلم [هنا] علم إلهيّ، والسلوك سلوك إلهيّ؛ والسلوك الإلهيّ لا ينسجم مع هذا الأمر، ولا يتوافق مع «إن قلتَ، قلتُ»؛ والأمر الآخر أنّه ليست كلّ نفس لها الاستعداد لهضم جميع المسائل دفعةً واحدة، بل إنّ هذه المسائل تتّضح لديها بالتدريج؛ ونرى بأنّ الإنسان يصل إلى العلم بالملاكات والمصالح والمفاسد تدريجيًّا، لا دفعة واحدة. وقد ذكرت للأصدقاء والأحبّاء بأنّ حالة التجرّد النفسانيّ التي يلزم منها نيل الإدراكات الكلّية وكشف الحُجب لا تحصل في لحظة واحدة، بل بالتدريج؛ ولهذا، اعتبر كافّة العظماء أنّ أوّل شرط للسلوك هي العبوديّة؛ أجل، كانوا يأتون، ويتحدّثون، ويقومون ويقعدون، ويعقدون الجلسات، لكنّ النتيجة المتوخّاة لا تحصل بدون تحقّق تلك المسألة [أي العبوديّة].

في أحد الأيّام، قال المرحوم السيّد الحدّاد رضوان الله تعالى عليه: «كان أحد علماء النجف في سفر برفقة

مجموعة من علماء إيران وبعض أصدقائه، حيث كان يُسافرون في الماضي بواسطة المحامل والهوادج، وينتقلون من مكان إلى مكان آخر؛ ووسط الطريق، توقّفوا للاستراحة، وحطّوا رحالهم بالليل في أحد المنازل، لكي يُعاودوا المسير في الصباح. وكان مُكاري تلك القافلة والمسؤول عن أمور الحمل والنقل ورعاية الدوابّ رجلاً عاديًّا، فلم يُعجب به ذلك العالم كثيرًا منذ البداية لِما رأى فيه من جرأة على المعاصي والذنوب؛ لكن، حينما كان منهمكًا في الحديث، رأى بأنّ ذلك المُكاري قد أتى بدوره، وجلس بينهم، وطرح سؤالاً معيّنًا؛ فلم يُجبه العالم بتاتًا، إلى أن مرّت فترة من الزمان، فأعطاه جوابًا، غير أنّ المكاري أشكل عليه، فأجابه العالم، ثمّ أشكل عليه المكاري مرّة أخرى، فاندلع بينهما النقاش، إلى أن وصل الأمر إلى عجز العالم عن الردّ على المكاري؛ ولمّا رأى بأنّ الأوضاع صارت مزرية، بدأ بالحديث عن بعض المسائل [الهامشيّة]، وقال: «ائتوني بذلك الشيء، خذوا ذلك الشيء!»، فأوقع

الفوضى بالاجتماع؛ لأنّه رأى بأنّ الأمر قد ساء كثيرًا. فانقضت مدّة من الزمان، وإذا بذلك المكاري يطرح مجدّدًا سؤالاً آخر في النحو، فبدآ يتبادلان الأسئلة والأجوبة شيئًا فشيئًا، إلى أن صار العالم عاجزًا عن الردّ؛ ليشرع [في التهرّب]، والقول: «خذوا هذا، ائتوا بذاك! ماذا فعلتم بهذا الشيء؟ وذلك الشي...»؛ فأثار الفوضى؛ ومرّة أخرى، انقضت فترة من الوقت، فأثار المكاري تساؤلاً فقهيًّا؛ وحينما رأى ذلك العالم بأنّه لا يتنازل؛ وكأنّه يُريد أن يُريق ماء وجهه أمام أصدقائه ومحبّيه، فإنّه قام من المجلس، وتخلّى عن المسألة بالكلّية، وذهب، وقال: «لقد تعبت!»، وأمثال ذلك؛ وبعد ذلك، التفت إلينا السيّد الحدّاد، وقال: «انظروا! حينما لا يكون هذا العلم مقترنًا بالعبوديّة، فإنّه ينتهي بصاحبه إلى هذه العاقبة».

فالعلم موجود، والمسائل مكوّمة، والمحفوظات مكدّسة؛ لكن ما هي حقيقة الأمر؟ فليس فقط أنّ تلك الاستفادة المتوخّاة من هذا العلم لم تحصل، بل إنّه يُعطي

نتيجة عكسيّة، ويصير حجابًا؛ فترى الإنسان يحفظ القرآن بتمامه، لكنّه لا يجني منه أيّة ثمرة، إلى درجة أنّه لا يعود يستفيد، ولو من آية واحد منه؛ وتجده عالمًا بكلّ الفقه، ومطّلعًا على الروايات التي تتحدّث عن العقاب، والوجوب والحرمة، غير أنّ علمه هذا لا يتجاوز مستوى الحفظ، بحيث إنّ نفسه صارت قاسيةً بقسوة هذا الكتاب. فإذا نظرتم إلى هذه الصفحات، سوف تجدونها قاسية؛ ولو أنّ هذا الكتاب وقع على رأس أحدهم، لأدّى إلى تألّمه؛ لكن، كم هي المسائل المكنونة فيه؟ فيكفي أن تلقوا نظرة عليه من بدايته إلى نهايته، لتروا ما هي المسائل المتضمّنة فيه؛ فما هو سبب ذلك؟ سببه أنّه يحتوي على مجموعة من المسائل، لكنّها مدوّنة على الورق، والورق يتّصف بالصلابة؛ لأنّ أصله الخشب؛ وفي الحقيقة، فإنّ تلك المسائل مكتوبة على الخشب؛ هذا، مع أنّهم كانوا في الأزمنة السابقة يكتبون المعلومات على الجلود، وأحيانًا، ينحتونها على الأحجار؛ فأين يكمن الفارق؟ صحيح أنّ المسألة هي

هي، غير أنّ الموضع الذي تستقرّ فيه ما هو؟ هل هي النفس، أم الحجر؟ فالنفس قد تصير حجرًا! فمع أنّ الإنسان يكون متيقّنًا بأنّ إثنين زائد إثنين تُساوي أربعة، ويرى الحقيقة ناصعة مثل الشمس في رائعة النهار، إلاّ أنّه لا يقبل؛ لماذا؟ لأنّه حجر؛ وإلاّ، فهل يوجد سبب يدفع الإنسان الذي يرى الحقيقة ألاّ يقبل بها؟ إذن، لأيّ شيء يرى الإنسان المصباح، ويرى النهار؛ لكنّه مع ذلك، يقول: «إنّه الليل! إنّ الجوّ مظلم!»، وما هي علّة ذلك؟ علّته أنّ المحلّ غير صالح، وأنّه تحوّل إلى حجر؛ فلا تعجبوا كثيرًا من أنّ ذلك الشخص يمتلك علمًا؛ لأنّ هذا العلم موجود حتّى في الكتب؛ فنفس هذا الكتاب الذي أحمله بيدي يتوفّر على مسائل كثيرة جدًّا، بحيث إنّ كلّ خطّ منه يتضمّن مسألة؛ لكنّه يا سيّدي يبقى كتابًا! ولو ألقيتموه في الماء، لصار عجينًا بعد مدّة من الزمان. هل يُمكنكم أن تعثروا على كتاب أفضل من القرآن الكريم وآياته؟ لكنّنا نجد بأنّ هذه الآيات مدوّنة على الورق؛ وهي ليست تلك الآيات المكنونة في الصدور، بل هي

آيات قرآنيّة مسطّرة بين الدفّتين [أي دفتي المصحف الشريف].

لهذا، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ارموا هذه الآيات بالسهام!» هل التفتّم؟ ما معنى ذلك؟ مراده من ذلك: «ارموا تلك الأوراق، ووجّهوا سهامكم نحو محلّ الآيات، وليس نحو الآيات بنفسها!». {لُّهُ وَآيَاتٌ لَبَدٌ}[1] {بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ}؛ فحقائق الآيات مكنونة في صدور الرجال، وأمّا هذه، فليست إلاّ مجرّد مداد، حيث تجد رجلاً كبيرًا يكتب بواسطة هذا المداد؛ كما تجد طفلاً ذي خمس سنوات يكتب بالمداد ذاته؛ فهي مجرّد مداد؛ مثلما أنّ تلك مجرّد أوراق. فماذا يعني «أنا القرآن الناطق»؟ يعني أنّ هذه الآيات مكنونة في صدري؛ ومن دون ذلك، لا تكون لها أيّة قيمة إذا أراد أولئك أن يواجهونني؛ ولهذا، فإنّه يقول: «ارموها!»؛ وأمّا بالنسبة لأهل الظاهر، فماذا يرون؟ لا يرون المحلّ، بل يقتصر نظرهم فقط على الظاهر، وعلى تلك

---

[1] ٤٩. قيلآا ردصلا ،تاوبكنعلا ةروس

الآيات؛ خلافًا لأمير المؤمنين الذي ينظر إلى المحلّ، ويقول لهم: «لقد تخلّيتم عن هذا المحلّ، وتمسّكتم بالأوراق!». إنّ حقيقة المسألة تدور بأجمعها حول هذه النقطة يا عزيزي! فعلى الإنسان أن يُحقّق في محلّه، ليرى ما هي حقيقة هذا المحلّ؟ هل هو محلّ تُنتقش فيه هذه الحقائق، أم أنّه مجرّد حافظة، وشريط، وكتاب؟ وفي هذه الحالة، فلن تكون له أيّة قيمة.

دعاسُيلا يذلا يلاحو ،مويلا اذهفورظىلإرظنلاب يذلا رادقملا اذهبيفتكأسيّنّنإف ،أضيأ تقولاو ،اًريثك نأىلع ؛ءاقدصلأا ةمدخبنوكأنأىلاعتالله هيفينقّفو ةسلجىلإلئاسملا هذه ةمّتتـىلاعتالله ءاشنإـلكنـ رخأى.

نّكمتنيكل ،هقيفوتانحنمينأريدقلاّيلعلانمو جرنـ هيلعقداصلا مامإلانعةدراولالئاسملا هذهبلمعلانمـ نوملّكتملانحنـ أضيأانرودبنوكنلاو ؛ملاسلا ةّمئلأاةعافشنمانمرحيّلاأو ؛ايضقلاكلتبنيلومشمـ ةرخلآاوايندلايفملاسلامهيلع.

اللهم صل على محمد و آل محمد